الصباح الإسلامية
09
العدد 2348 - السنة الثامنة
الخميس 13 ربيع الأول 1437 - الموافق 24 ديسمبر 2015
Thursday 24 December 2015 - No.2348 - 8th Year
إعداد : ياسر السيد

في زمن كان العرب يعيشون فيه شبه انعزال حضاري

ولد الهدى ... فالكائنات ضياء

كان أول من صدق رسالته زوجه خديجة ومن الرجال الصديق

فقد أباه قبل مولده وكانت وفاة أبيه بالمدينة عند أخوال أبيه من «بني النجار»

كانت البشرية تُعاني صنوف الجهل والتخلف والانحطاط الخلقي والحضاري.. العرب في الجزيرة يعبدون الأصنام ويقتلون البنات ويتعيشون على الميسر والزنا.. أما الشعب الفارسي فقد أدمن عبادة النار كما أدمن عبادة الطاغية كسرى، الذي كرث الطبقية والكراهية بين صفوف الشعب الفارسي .. وهذا هرقل أجج الخلاف الطائفي بين الرومان فأخذ يذبح من يخالفه في المذهب، فضلاً عن فساد السلطة الرومانية الحاكمة مالياً وإدارياً وسياسياً .. حتى وصل بهم الحد أن فرضوا ضريبة على الشعوب تسمى « ضريبة الرأس» .. وهي ضريبة يدفعها المواطن نظير ترك رأسه دون ذبح !

ومن ثم « فإننا نجد استعدادات عامة للانتحار الاجتماعي العام . لم يكن النوع البشري في ذلك الزمان راضيًا بالانتحار فحسب، بل كان يتساقط عليه، ويتهالك فيه !![1]».

وفي زمن كانت مكة تعيش في حالة تشبة الانعزال الحضاري، وينقائل العرب لأتفه الأسباب من الله تعالى على البشرية بميلاد خير مخلوق، فكانت رسالة الإسلام.

مولد الهدي

كانت «مكة» على موعد مع حدث عظيم كان له تأثيره في مسيرة البشرية وحياة البشر طوال أربعة عشر قرنًا من الزمان، وسيظل يشرق بنوره على الكون، ويرشد بهداه الحائرين، إلى أن يرث الله الأرض وما عليها.

كان ميلاد النبي «محمد» صلى الله عليه وسلم أهم حدث في تاريخ البشرية على الإطلاق منذ أن خلق الله الكون، وسخر كل ما فيه لخدمة الإنسان، وكان هذا الكون كان يرتقب قدومه منذ أمد بعيد.

وفي (12 من ربيع الأول) من عام الفيل شرف الكون بميلاد سيد الخلق وخاتم المرسلين «محمد» صلى الله عليه وسلم.

وقد ذهب الفلكي المعروف «محمود باشا الفلكي» في بحث له إلى أن النبي محمد صلى الله عليه وسلم ولد يوم الإثنين (9 من ربيع الأول الموافق 20 من أبريل سنة 571 ميلادية).

ولادة رسول الله صلى الله عليه وسلم ورضاعته

قال ابن إسحاق : ولد رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم الاثنين ، لاثنتي عشرة ليلة خلت من شهر ربيع الأول ، عام الفيل (اختلف في مولده صلى الله عليه وسلم . فذكر انه كان في ربيع الأول ، وهو المعروف . وقال الزبير: كان مولده في رمضان . وهذا القول موافق لقول من قال:إن امه حملت به في ايام التشريق ويذكرون ان الفيل جاء مكة في المحرم ، وانه صلى الله عليه وسلم ولد بعد مجيء الفيل بخمسين يوما. وكانت ولادته صلى الله عليه وسلم بالشعب ؛ وقيل بالدار التي عند الصفا ، وكانت بعد لمحمد بن يوسف اخي الحجاج ثم بنتها زبيدة مسجدا حين حجت . راجع الروض الأنف والطبقات الكبرى لابن سعد والطبري)

قال ابن إسحاق : حدثني المطلب بن عبد الله بن قيس بن مخرمة عن ابيه عن جده قيس بن مخرمة ، قال : ولدت انا ورسول الله صلى الله عليه وسلم عام الفيل ، فنحن لدان (كذا في ا . ولدان: مثني لدة. واللدة : الترب، والهاء فيه عوض عن الواو الذاهبة من اوله ، لأنه من الولادة . وفي سائر الأصول : « لدتان » ولم تذكره كتب اللغة بدون تاء)

(رواية حسان بن ثابت، عن مولده صلى الله عليه وسلم)

قال ابن إسحاق : وحدثني صالح بن (هو صالح بن إبراهيم بن عبد الرحمن بن عوف بن عمران الزهري المدني ، روى عن أبيه وانس ومحمود بن لبيد والأعرج وغيرهم. وعنه ، غير ابن إسحاق ، ابنه سالم والزهري ويونس بن يعقوب الماجشون وجماعة. مات بالمدينة في خلافة هشام بن عبد الملك . عن تراجم رجال) إبراهيم بن عبد الرحمن بن عوف ،عن يحيى بن عبد الله بن عبد الرحمن بن سعد بن زرارة الأنصاري . قال : حدثني من شئت من رجال قومي عن حسان بن ثابت، قال : والله إني لغلام (غلام يفعة: قوي قد طال قده ، مأخوذ من اليفاع ، وهو العالي من الأرض)

يفعة ابن سبع سنين او ثمان ، أعقل كل ما سمعت إذ سمعت يهوديا يصرخ بأعلى صوته على أطمة (الأطمة بفتحتين : الحصن) بيثرب : يا معشر يهود ، حتى إذا اجتمعوا إليه ، قالوا له: ويلك مالك ؟ قال طلع نجم أحمد الذي ولد به .

قال محمد ابن إسحاق : فسألت سعيد بن عبد الرحمن بن حسان بن ثابت ، فقلت : ابن كم كان حسان بن ثابت مقدم رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينة ؟ فقال : ابن ستين سنة (زيادة عن ا) وقدمها رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهو ابن ثلاث وخمسين سنة ، فسمع حسان ما سمع وهو ابن سبع سنين .

نسب النبي الشريف

هو «أبو القاسم محمد بن عبد الله بن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف بن قصي بن كلاب بن مرة»، ويمتد نسبه إلى «إلياس بن مضر بن نزار بن معد بن عدنان»، وينتهي إلى «إسماعيل بن إبراهيم» عليهما السلام.

وأمه «آمنة بنت وهب بن عبد مناف بن زهرة بن كلاب بن مرة»، ويتصل نسب أمه مع أبيه بدءًا من «كلاب بن مرة».

وروي في سبب تسميته أن أمه أمرت أن تسميه بذلك وهي حامل، وروي أن جده عبد المطلب رأى في منامه كأن سلسلة من فضة خرجت من ظهره، لها طرف في السماء وطرف في الأرض، وطرف في المشرق وطرف في المغرب، ثم عادت كأنها شجرة، على كل ورقة منها نور، وإذ بأهل المشرق والمغرب يتعلقون بها؛ فتأولها بمولود يكون من صلبه يتبعه أهل المشرق والمغرب، ويحمده أهل السماء فسماه «محمد».

وتبدو أسباب التهيئة والإعداد من الله تعالى لمحمد صلى الله عليه وسلم في مهمته الجليلة ورسالته العظيمة، جلية واضحة منذ اللحظة الأولى في حياته، بل إنها كانت قبل ذلك، وقد تجلى ذلك حتى في اصطفاء اسمه صلى الله عليه وسلم، فليس في اسمه أو اسم أبيه أو جده ما يحط قدره وينقص منزلته، وليس في اسمه شيء محتقر، كما أنه ليس اسمه اسمًا مصغرًا تستصغر معه منزلته، وليس فيه كبرياء أو زيادة تعاظم يثير النفور منه.

ابن الذبيحين

ويعرف النبي صلى الله عليه وسلم بابن الذبيحين، فأبوه «عبد الله» هو الذبيح الذي نذر «عبد المطلب» ذبحه ثم فداه بمائة من الإبل، وجده «إسماعيل» - عليه السلام- هو الذبيح الذي فداه ربه بذبح عظيم.

وقد اجتمع للنبي صلى الله عليه وسلم من أسباب الشرف والكمال ما يوقع في نفوس الناس استعظامه، ويسهل عليهم قبول ما يخبر به، وأول تلك الأسباب كان شرف النسب «وأشرف النسب ما كان إلى أولي الدين، وأشرف ذلك ما كان إلى النبيين، وأفضل ذلك ما كان إلى العظماء من الأنبياء، وأفضل ذلك ما كان إلى نبي قد اتفقت الملل على تعظيمه».

ولم يكن النبي صلى الله عليه وسلم يهوديًا ولا نصرانيًا ولا مجوسيًا، لأنه لو كان من أهل ملة لكان خارجًا عن دين من يدعوهم فيكون عندهم مبتدعا كافرًا، وذلك ما يدعوهم إلى تنفير الناس منه، وإنما كان حنيفًا مسلمًا على ملة أبيائه: «إبراهيم» و«إسماعيل» عليهما السلام.

مولد النبي صلى الله عليه وسلم إيذان بزوال الشرك

كان مولد النبي صلى الله عليه وسلم نذيرا بزوال دولة الشرك، ونشر الحق والخير والعدل بين الناس، ورفع الظلم والبغي والعدوان.

وكانت الدنيا تموج بألوان الشرك والوثنية وتمتلئ بطواغيت الكفر والطغيان. وعندما أشرق مولد سيد الخلق كانت له إرهاصات عجيبة، وصاحبته ظواهر غريبة وأحداث فريدة، ففي يوم مولده زلزل إيوان «كسرى» فسقطت منه أربع عشرة شرفة، وخمدت نار «فارس» ولم تكن خمدت قبل ذلك بألف عام، وغاضت بحيرة «ساوة».

وروى عن أمه أنها قالت: «رأيت لما وضعته نورًا بدا مني ساطعًا حتى أفزعني، ولم أر شيئًا مما يراه النساء». وذكرت «فاطمة بنت عبد الله» أنها شهدت ولادة النبي صلى الله عليه وسلم وقالت: «فما شيء أنظر إليه من البيت إلا نور، وإني لأنظر إلى النجوم تدنو حتى إني لأقول لتقعن عليّ».

وروى أنه صلى الله عليه وسلم ولد معذورًا مسرورًا -أي مختونا مقطوع السرة- وأنه كان يشير بإصبع يده كالمسبح بها.

محمد اليتيم

فقد محمد صلى الله عليه وسلم أباه قبل مولده، وكانت وفاة أبيه بالمدينة عند أخوال أبيه من «بني النجار» وهو في الخامسة والعشرين من عمره، وعلى عادة العرب فقد أرسله جده إلى البادية ليسترضع في «بني سعد»، وكانت حاضنته «حليمة بنت أبي ذؤيب السعدي»، فلم يزل مقيمًا في «بني سعد» يرون به البركة في أنفسهم وأموالهم حتى كانت حادثة شق الصدر، فخافوا عليه وردوه إلى جده «عبد المطلب» وهو في نحو الخامسة من عمره.

لم تليث أمه «آمنة» أن توفيت في «الأبواء» - بين «مكة» و «المدينة» - وهي في الثلاثين من عمرها، وكان محمد صلى الله عليه وسلم قد تجاوز السادسة بثلاثة أشهر، وكأنما كان على «محمد» صلى الله عليه وسلم أن يتجرع مرارة اليتم في طفولته، ليكون أبًا لليتامى والمساكين بعد نبوته، وليتضح الر ذلك الشعور باليتم في حنوّه على اليتامى وبره بهم، ودعوته إلى كفالتهم ورعايتهم والعناية بهم.

محمد في كفالة جده وعمه

عاش «محمد» صلى الله عليه وسلم في كنف جده «عبد المطلب» وكان يحبه ويعطف عليه، فلما مات «عبد المطلب» وكان «محمد» في الثامنة من عمره، كفله عمه «أبو طالب»، فكان خير عون له في الحياة بعد موت جده، وكان أبو طالب سيدًا شريفًا مطاعًا مهيبًا، مع ما كان عليه من الفقر، وكان «أبو طالب» يحب محمدًا ويؤثره على أبنائه ليعوضه ما فقده من حنان وعطف. وحينما خرج «أبو طالب» في تجارة إلى «الشام» تعلق به «محمد» فرق له «أبو طالب» وأخذه معه، فلما نزل الركب «بصرى» -من أرض «الشام»- وكان بها راهب اسمه «بحيرى» في صومعة له، فلما رآه «بحيرى» جعل يلحظه لحظا شديدًا، ويتفحصه مليًا، ثم أقبل على عمه «أبي طالب» فأخذ يوصيه به، ويدعوه إلى الرجوع به إلى بلده، ويحذره من اليهود.

محمد في مكة

وشهد «محمد» صلى الله عليه وسلم حرب الفجار - الذين فجّروا القتال في شهر الله الحرام رجب- وكان في السابعة عشرة من عمره، وحضر «حلف الفضول» وقد جاوز العشرين من عمره، وقد قال فيه بعد بعثته: «حضرت في دار عبد الله بن جدعان حلفًا ما يسرني به حمر النعم، ولو دُعيت إليه اليوم لأجبت».

عاش في كنف جده «عبد المطلب» وكان يحبه ويعطف عليه

وقد عُرف النبي صلى الله عليه وسلم - منذ حداثة سنه - بالصادق الأمين، وكان موضع احترام وتقدير «قريش» في صباه وشبابه، حتى إنهم احتكموا إليه عندما اختلفوا فيمن يضع الحجر الأسود في مكانه من الكعبة، حينما أعادوا بناءها بعدما تهدمت بسبب سيل أصابها. وأرادت كل قبيلة أن تحظى بهذا الشرف حتى طار الشرّ بينهم، وكادوا يقتتلون، فلما رأوه مقبلاً قالوا: قد رضينا بحكم «محمد بن عبد الله»، فبسط رداءه، ثم وضع الحجر وسطه، وطلب أن تحمل كل قبيلة جانبًا من جوانب الرداء، فلما رفعوه جميعًا حتى بلغ الموضع، أخذه بيده الشريفة ووضعه مكانه.

وعندما بلغ «محمد» صلى الله عليه وسلم الخامسة والعشرين تزوج السيدة «خديجة بنت خويلد»، قبل أن يُبعث، فولدت له «القاسم» و«رقية» و«زينب» و«أم كلثوم»، وولدت له بعد البعثة «عبد الله».

من البعثة إلى الوفاة

ولما استكمل النبي صلى الله عليه وسلم أربعين سنة كانت بعثته، وكانت «خديجة» أول من آمن به من النساء، وكان «أبو بكر الصديق» أول من آمن به من الرجال، و«علي بن أبي طالب» أول من آمن من الصبيان، وأقام النبي صلى الله عليه وسلم بمكة ثلاث سنين يكتم أمره، ويدعو الناس سرًا إلى الإسلام، فآمن به عدد قليل، فلما أمر بإبلاغ دعوته إلى الناس والجهر بها، بدأت قريش في إيذائه وتعرضت له ولأصحابه، ونال المؤمنون بدعوته صنوف الاضطهاد والتنكيل، وظل المسلمون يقاسون التعذيب والاضطهاد حتى اضطروا إلى ترك أوطانهم والهجرة إلى «الحبشة» ثم إلى المدينة.

ومرّت الأعوام حتى عاد النبي صلى الله عليه وسلم إلى مكة فاتحا -في العام العاشر من الهجرة- ونصر الله المسلمين بعد أن خرجوا منها مقهورين، ومكن لهم في الأرض بعد أن كانوا مستذلين مستضعفين، وأظهر الله دينه وأعز نبيه ودحر الشرك وهزم المشركين.

وفي العام التالي توفي النبي صلى الله عليه وسلم في (12 من ربيع الأول 11هـ = 7 من يونيو 632م) عن عمر بلغ (63) عامًا.

عظمة النبي في عيون الغربيين

إن المتأمل لما كتب وقيل يدرك أنه لم تحظ شخصية في التاريخ البشري العريض بمثل ما حظيت به شخصية النبي الكريم محمد عليه أفضل الصلاة والسلام من الإهتمام والإشادة والتمجيد من كافة الأعراق والشعوب والطوائف والملل، وفي شتى اللغات . وبالرغم من وجود من حاولوا الطعن في نبوة الرسول الكريم (صلى الله عليه وسلم) والتشكيك في رسالته بسبب الحقد على الإسلام وإطباق الجهل بالإسلام على أصحابها والبعد عن الموضوعية العلمية في البحث والتدقيق، فإن التيار العام ظل يسير في ناحية التقدير الحقيقي لشخصية محمد(صلى الله عليه وسلم) في تاريخ البشرية، وفضل رسالته على الإنسانية، بشكل يتوخى الإنصاف والموضوعية بعيدا عن الأحقاد الصليبية وتعاليم الكنيسة في القرون الوسطى.

وبإطلاعنا على ما قيل في النبي صلى الله عليه وسلم من طرف المفكرين والمستشرقين والفلاسفة الغربيين المنصفين نجد أن هؤلاء يمثلون كبار مفكري الغرب وأعمدة الفكر والفلسفة فيه ، وقد حاولوا الوقوف على عظمة الرسول الكريم (صلى الله عليه وسلم)، منبهرين بشخصيته العظيمة ونبل أخلاقه وطهارة حياته وخلوها من كل ما يثلم أخلاقه القرآنية، والبعض منهم اكتفى بوضع شخصية نبي الإسلام في إطارها الحقيقي الذي يعرفه المسلمون أجمع، دون أن يلمس الإسلام ودعوته شغاف قلوبهم، والبعض الآخر ممن ظلوا بعيدين عن الإسلام تعرضوا للشخصية العامة للنبي كواحد من الأبطال والعباقرة الذين أثروا في مسيرة التاريخ، لكن فئة من هؤلاء كان إطلاعهم على خصائص شخصية الرسول(صلى الله عليه وسلم) وفضائلها مدخلا إلى البحث في الإسلام، ومن ثم إلى إعلان إسلامهم علنا على الملإ.

فهذا المؤرخ الأوروبي «جيمس ميتشنر» يقول في مقال تحت عنوان (الشخصية الخارقة) عن النبي (صلى الله عليه وسلم) :«.....وقد أحدث محمد عليه السلام بشخصيته الخارقة للعادة ثورة في الجزيرة العربية، وفي الشرق كله، فقد حطم الأصنام بيده، وأقام دينا خالدا يدعو إلى الإيمان بالله وحده ». ويقول الفيلسوف الفرنسي (كارديفو) :«إن محمدا كان هو النبي الملهم والمؤمن، ولم يستطع أحد أن ينازعه المكانة العالية التي كان عليها ، إن شعور المساواة والإخاء الذي أسسه محمد بين أعضاء الكتلة الإسلامية كان يطبق عمليا حتى على النبي نفسه».

أما الروائي الروسي والفيلسوف الكبير تولستوي الذي أعجب بالإسلام وتعاليمه في الزهد والأخلاق والتصوف، فقد انبهر بشخصية النبي(صلى الله عليه وسلم) وظهر ذلك واضحا على أعماله، فيقول في مقالة له بعنوان (من هو محمد؟): «إن محمدا هو مؤسس ورسول، كان من عظماء الرجال الذين خدموا المجتمع الإنساني خدمة جليلة، ويكفيه فخرا أنه أهدى أمة برمتها إلى نور الحق، وجعلها تجنح إلى السكينة والسلام، وتؤثر عيشة الزهد ومنعها من سفك الدماء و تقديم الضحايا البشرية ، وفتح لها طريق الرقي و المدنية ،و هو عمل عظيم لا يقدم عليه الا شخص أوتي قوة ، ورجل مثله جدير بالإحترام والإجلال».

قصيدة حسان بن ثابت في مدح الرسول

أغـــــرّ عـليـه لـلـنـبـوة خـاتـم
مـــن الـلـه مـشـهـود يـلـوح ويـشـهـد
وضـــم الإلـــه اســم الـنـبـي إلـــى اسـم
إذا قـــال فـي الـخـمـس الـمـؤذن أشـهـد:
وشـــق لـــه مـــن اسـمـه لـيـجـلـه
فـــذو الـعـرش مـحـمـود وهـــذا مـحـمـد
نبي أتانا بعد يأس وفترة من الرسل
والأوثـــانُ فـــي الأرض تـعـبـد
فـأمـسـى سـراجـاً مـسـتـنـيـراوهـاديـا
يـلـوح كـمـا لاح الـصـقـيـل الـمـهـنـد
وأنـــذرنـــا نـــاراً وبـشّـــر جـنـّة
وعـلـمـنـــا الإســـلام فـالـلـه نـحـمـد
وأنـــت إلـــه الـخـلـق ربـــي وخـالـقـي
بـذلـك مـاعـمّـرت فـي الـنـاس أشـهـد